**المنظور الإسلامي للتنمية العمرانية**

لم تتعرض المدينة العربية و الإسلامية الي الدراسة و البحث بالقدر الذي نالته العمارة الإسلامية. و مع ذلك فقد اهتم كثير من علماء الغرب بالمدينة العربية و الإسلامية و اسهموا بقدر كبير في دراستها حضاريا و عمرانيا بأساليب مختلفة. وظلت المكتبة العربية تفتقر الي مرجع جامع يعالج المدينة العربية و الإسلامية تاريخيا و اجتماعيا و اقتصاديا و عمرانيا ليس بهدف التسجيل الاثري أو التاريخي و لكن لتأكيد التواصل الحضاري بين الماضي و الحاضر و المستقبل. و اذا كانت العديد من المراجع قد تعرضت للمدينة العربية من المنظور التاريخي الا أن قليلا منها قد تابع حاضرها أو تبصر بمستقبلها و الكتابة في هذا الموضوع تتطلب عناية خاصة بالتناول العلمي لأي من الجوانب المختلفة التي تحيط بالمدينة العربية الإسلامية ، فالمدينة بأحجامها المختلفة جزء لا يتجزأ من الاطار الدولي القومي أو الإقليمي التي تعيش فيه و تتأثر به و تؤثر عليه كما انها جزء لا ينفصل عن المقومات الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية للمجتمع الذي يعيش فيها ، و هي أيضا حلقة من الحلقات التاريخية و السياسية التي مرت بها . و هي بعد كل ذلك جزء من البيئة الطبيعية التي نشأت فيها . و هي في مجملها نتاج لمجموعة مركبة من العوامل الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية و البيئية و السياسية تفاعلت مع بعضها في فترات زمنية متلاحقة و ظهرت اثارها علي التشكيل العمراني لشكل المدينة كما ظهرت علي التكوين الاجتماعي لسكانها علي مر العصور .

فالمدينة هنا هي تعبير طبيعي لحركة التاريخ نلمح علي واجهتها ملامح أصولها الثقافية و الحضارية ، كما نلمح علي نسيجها المؤثرات التاريخية التابعة من الواقع المحلي او الواردة مع الغزاة و الفاتحين او المنقولة عن الحضارات الخارجية . و المدينة من ناحية اخري جهاز معقد الشرايين و متداخل الاوصال تحكمه إدارات تنفيذية و توجهه تيارات جماهيرية . كما أن المدينة جهاز متجدد البناء مركزه قديم متهالك و اطرافه حديثة التشييد. تختلط فيه الفئات الاجتماعية بمستوياتها الاقتصادية و التقافية المتباينة ، تختلط فيه العادات و التقاليد التي تنعكس مظاهرها علي السكان في حركاتهم و سكناتهم ، كما تنعكس في مساكنهم و ازيائهم و أنماط استهلاكهم و مجالات خدماتهم ..

فالمدينة باختصار هي كيان اجتماعي عمراني مركب تحتاج ادارته الي جهاز متعدد الاختصاصات متنوع الخبرات تسنده مجموعة من اللوائح و القوانين المنظمة لحياة المدينة عمرانيا و بشريا ، كما تسنده قوي متعددة لتطبيق هذه اللوائح و القوانين ، و تعتمد هذه القوي علي طبيعة المجتمع تقدما او تخلفا فكلما زاد المجتمع تقدما زادت مشاركته في إدارة نفسه بنفسه ، و كلما انخفض تقدم المجتمع قلت ارادته و من ثم مشاركته في إدارة نفسه بنفسه . و يستمر معتمدا علي غيره في توجيه اموره ، و قد يكون هذا الغير فردا أو مؤسسة تخضع للتعليمات السياسية و توجهها المصالح المحلية أو الدولية . و المدينة بهذه الصورة المركبة و هذه الطبيعة المعقدة تحتاج الي أجهزة قادرة علي ادارتها اقتصاديا و اجتماعيا و عمرانيا .

و كلما زاد حجمها و تفاقمت مشاكلها كلما ازدادت الحاجة الي احكام في الإدارة و قدرة علي الأداء و هذا ما يفرق المجتمعات النامية و المتخلفة إداريا عن المجتمعات المتقدمة و القادرة إداريا و تنظيميا . و بذلك تصبح التنمية العمرانية هنا عملية إدارية و تنظيمية اكثر منها دراسات و مخططات ، بل هي منهج و أسلوب عمل اكثر منها نظريات و اقتراحات خاصة في المجتمعات النامية لي تتعرض للعديد من التقلبات و المتغيرات ، الأمر الذي يصعب معه تحديد الاتجاه الأمثل الذي يحكم التنمية العمرانية لاجال طويلة من الزمن .

و هنا تتطلب التنمية العمرانية قدرة فائقة علي الأداء ، و حكمة في اتخاذ القرار ، و قدرا كافيا من المرونة في الحركة و التوجيه الذي يعتمد علي قواعد تخطيطية نابعة من الواقع الاجتماعي و العمراني للمدينة ، ولا يخضع لنظريات مستوردة من مجتمعات مختلفة في بيئتها الحضارية و العمرانية . ولا تجد المدينة العربية او الإسلامية هنا الا ان تسلك المنهج الإسلامي في التنمية الاقتصادية و الاجتماعية ، الذي ينعكس بالتبعية علي منهج التنمية العمرانية . و هو المنهج المتكامل الذي يسعي الي بناء الانسان السوي الذي تنعكس متطلباته في حركاته و سكناته علي العمران الذي يعيش فيه أو يتعايش معه . من هذا المنطلق لابد ان يتطرق البحث الي المستوطنات البشرية التي أقيمت قبل الإسلام و قياس مدي تأثير القيم الإسلامية علي توجيه انشاءها و من ثم بناء عمرانها . كما يتطرق البحث أيضا الي المستوطنات البشرية التي أقيمت بعد الإسلام و دراسة مدي تأثرها بالقواعد الشرعية و القيم الإسلامية . و اذا كانت معظم هذه المستوطنات تقع في النطاق الجغرافي الذي شمله الإسلام في المراحل التاريخية المتلاحقة ، فان الأمر يتطلب البحث عن القوانين الإسلامية الموجهة لحركة التعمير في كل مكان وكل زمان و ارتباطها بالمتغيرات البيئية و الحضارية التي تختلف باختلاف المكان و الزمان . فليس الهدف من هذا الكتاب هو رصد و التحيل بقدر ما هو البحث عن نظرية التنمية العمرانية للمدينة الإسلامية بأبعادها الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية . و يعني ذلك استقراء تاريخ المدينة العربية او الإسلامية بمنظور العقيدة و التعاليم الإسلامية ، و ليس بمنظور المؤرخ لتطورها أو المحلل لعناصرها . ان البحث عن النظرية في تنمية المدينة العربية و الإسلامية لا يبدأ من فراغ فكري أو علمي ، فقد سبق أن انبثقت النظريات و الأساليب التخطيطية في الغرب من الواقع الاجتماعي و البيئي الذي نشأت فيه المدينة في الغرب ، و لذلك جاءت النظرية الغربية متواءمة مع البيئة الغربية و الحضارة الغربية بكل مقوماتها الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية و العلمية . و تطورت النظرية الغربية مع الزمن مع تطور هذه المقومات الحضارية ، فهي نظرية متجددة بتجدد الفكر من واقع المتابعة و التقويم و التطوير ثم التجربة و التطبيق ثم المتابعة و التقويم و التطوير . و هكذا تتحرك النظرية التخطيطية في الغرب بقوة فائقة حتي وصلت الي المدينة العربية و الإسلامية لتفرض عليها مضامينها الفكرية و اشكالها التصميمية ، و كادت ان تمحو ملامحها العربية و الإسلامية ، كما كادت ان تمحو الحضارة الغربية الوافدة ملامح الانسان العربي حياتيا و اجتماعيا . من هنا لابد من وقفة لمراجعة مثل هذه النظريات و الأساليب التخطيطية الغربية بمنظور المنهج الإسلامي فكريا و عقائديا ، تمهيدا للبحث عن النظرية الإسلامية من واقع التعاليم الإسلامية و من خلال التجربة التاريخية في بناء او تعمير ما تسمي بالمدينة الإسلامية .

ان الهدف من التتبع التاريخي للمدينة في الغرب ليس التعرف علي اشكالها بقدر التعرف علي اشكالها بقدر التعرف علي العوامل الاقتصادية او الاجتماعية او الثقافية او البيئية التي افرزتها ككيانات عضوية و كيف انقلب النسيج العمراني لمدينة العصور الوسطي الي النسيج الكلاسيكي في مدينة عصر النهضة حيث ارتد معماريوها الي كلاسيكية العصرين اليوناني و الروماني و اخذوا بمبدأ اظهار العمارة في صور رسمية تعبر عن مظاهر العظمة و القوة و هكذا ظهرت العمارة الرسمية مرة اخري تعبر عن مركزية المبني المفرد في الفراغ الحضري الرسمي . و ضاعت بذلك عمارة المجتمع التي ظهرت في العصور الوسطي مع ضياع سلطة الكنيسة و ظهور سلطة او سلطان . و انعكست سلطة الامبراطوريات علي تخطيط المدن الدفاعية التي ترتبط بنظام هندسي نجمي يتناسب مع وسائل الدفاع الحديثة في ذلك الوقت . كما خضعت التصميمات المعمارية الي قواعد هندسية كلاسيكية خاصة في عمارة الكنائس و القصور. و اصبح للتصميم المعماري نظرياته و فلسفاته التي ظهرت في مؤلفات عدد من المعمارين مثل " بلاديو " و " البرتي " و غيرهم ممن وضعوا للعمارة قواعدها النظرية و التطبيقية في ذللك العصر و اصبح للمعماري و المخطط وضعه الاجتماعي كفنان . كما ظهر الاهتمام بتخطيط الميادين الرسمية الكبيرة علي المحاور الرئيسية للحركة في المدينة حيث تتجمع المواكب و تتحرك علي طول الشوارع الرئيسية المتفرعة منها ، مما اثر علي النسيج العمراني للمدينة و اعطي نمطا مميزا لتخطيط مدينة عصر النهضة ، الامر الذي انتقلت اساليبه بعد ذلك الي مدن المشرق العربي من خلال الحملات الاستعمارية . و اصبح تخطيط المدينة عملا هندسيا معماريا مظهريا اكثر منه اقتصاديا و اجتماعيا . و برزت عمارة القصور و تخطيط حدائقها و ساحاتها حتي طغت علي عمارة الكنائس .

و بانتهاء عصر النهضة و دخول أوروبا عصر الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر بدأت النظرية التخطيطية تتطور لملاحقة التطورات الاقتصادية و الاجتماعية و التكنولوجية التي صاحبت الثورة الصناعية . و مع تطور سبل المواصلات و الاتصال بدأت المجتمعات تتحرك علي نطاق أوسع خارج المدينة القائمة او تهاجر الي مواقع جديدة لمدن جديدة حول مواقع الإنتاج الجديدة . و كان التطور التكنولوجي و من ثم التحول الاقتصادي اسرع في معدلاته من ان يواكب التحولات الاجتماعية بل و سبقها ، الامر الذي ساعد علي إيجاد فجوة كبيرة بين التطور الاقتصادي التكنولوجي السريع بطبيعته و التطور الاجتماعي البطيء بطبيعته ، و بالتالي ساعد علي إيجاد الخلل الاجتماعي مع فقدان التوازن الايكولوجي بين السكان و البيئة العمرانية الجديدة . و هكذا بدأت المشاكل الاجتماعية و البيئية في الظهور، كما بدأ البحث عن الحلول لهذه المشاكل من قبل الاجتماعيين و الكتاب و الأطباء و المهندسون كل في مجال علمه و تخصصه . و لم يكن للدين في هذه الحركة الفكرية أي نصيب من الفاعلية او التوجيه ، فقد طغت الماديات علي المعنويات و ظهرت الصراعات الفكرية و السياسية بين الحريات المطلقة و النظم المقيدة . و انقسمت أوروبا شرقا و غربا و استمرت هذه الصراعات بين القوة و الضعف و انتهت في معظم الأحيان الي الحروب المحلية او العالمية و التي كانت بدايات لنظريات جديدة في تخطيط المدن بعد تهدمها او اندثارها .

بدأت جذور النظريات الحديثة في التخطيط الحضري تظهر من وجهة نظر الغرب . في إنجلترا و فرنسا ، وذلك في بداية القرن التاسع عشر ، و تطورت مع التطور السريع الذي شهدته مدن الغرب اثر التطورات الصناعية السريعة التي اصابت المدن عمرانيا و صحيا و اجتماعيا ، و بدأ المفكرون يبحثون عن الوسائل التي تساعد المدن علي النهوض من كبوتها العمرانية . فظهرت النظريات الفكرية و الفلسفية التي شهد بعضها النور في التطبيق العملي في أماكن محدودة ، و استمرت معظم المدن تعاني من مشاكلها المتراكمة و المتصاعدة و لم تسعفها النظريات او الفلسفات . وعندما لم تستطع هذه النظريات و هذه الفلسفات ان تحل مشاكل المدن القائمة سعي أصحابها الي تطبيقها علي مواقع جديدة لبناء مدن جديدة لم يظهر منها علي وجه الأرض الا قليل جدا . و لم تتعرض المدن القائمة الي عمليات التخطيط و البناء الشامل الا في اعقاب كوارث اصابتها او حرائق التهماتها او حروب دمرتها و استمرت المدن الأخرى التي لم يصبها سوء تعاني من مشاكلها المتراكمة . لقد كان حريق لندن عام 1666م سبب في رسم التخطيطات الجديدة لاعادة بنائها من جديد ، و لم يكن امام المخطط الا استعمال نظام الشوارع المتعامدة و المتقاطعة التي تخلق بينها مربعات سكنية ثابتة فكان الهدف هو رسم شبكات الطرق في اشكال هندسية تساعد علي تعاظم شكل المدينة و منها التخطيطات التي راعت وجود البواكي علي جوانب الطرق مع تحديد مقاساتها و حجم المباني . و بدات بعد ذلك مرحلة تطوير المناطق المختلفة في المدن ببناء مجموعات من المباني التجارية و السكنية و الإدارية . و هكذا ظهر دور المعماريين المخططين لتلبية متطلبات النظم الاقتصادية خلال فترة المستعمرات في إنجلترا عام 1796 م في نهاية القرن الثامن عشر . و علي الجانب الاخر ظهر في فرنسا عام 1804م كتاب عن العمارة يرسي قواعد التصميم المعماري علي أساس الوظائف و الحاجة الاجتماعية ، الامر الذي ظهرت اثاره في التخطيطات التي وضعت لبعض المدن الجديدة الصغيرة في المناطق الريفية . و هكذا بدأت تظهر المخططات مرونة التنمية ، و الإحاطة بالاحزمة الخضراء ، و الاهتمام بحركة السيارات ، و حاجات المجتمع العمالي من الخدمات ، و جميعها مقومات النظريات المخططة التي وضعها ( ليدو ) في فرنسا للمدينة المثالية . و بعد فترة وجيزة و في عام 1884م ظهر داعية اجتماعي (أوجه) يدعو الي خلق بيئة جديدة لقرية عمالية تحتوي علي المناطق الترفيهية و التعليمية ، و حاول تطبيق النظرية الاجتماعية في المخطط العمراني . ثم جاء (جون) ليؤكد تزاوج البعث الاجتماعي بالبعث المعماري و دعي للفظ التقدم الصناعي و العودة الي الحرف و مدينة العصور الوسطي ، الامر الذي ساعد علي ظهور الرومانسية في العمارة و العودة الي النظام القوطي في عمارة و تخطيط مدن الحرفيين بما فيها من مقاييس إنسانية و قيم جمالية . و مع ذلك لم تستطع هذه الدعوة مقاومة الضغط الكبير للتطور الصناعي . فبدأ المخططون يتعاملون مع متطلبات عصر الصناعة كواقع . فجاء ( هاوسمان ) ليحقق رغبات نابليون الثالث لتطوير باريس مع ما يتطلبه ذلك من إدارة جديدة للمدن شاملة الجوانب المالية و التخطيطية و الإدارية و السياسية و انشأ لذلك الأجهزة المتخصصة . و بذلك اخذ التخطيط العمراني ابعاده الإدارية التنظيمية بجانب جوانبه الفنية و الاقتصادية و الاجتماعية . و صار المحرك لهذه الحركة العمرانية هي رفبة الحاكم في التطوير و التعمير الرسمي ، و لم يكن للعامل الاجتماعي او المشاركة الشعبية او المقومات الدينية أي دور في هذه العملية . فظهرت باريس كعمل معماري كبير تحددت فيه الشوارع الكبيرة بالاشجار الكبيرة و تحددت واجهات المباني علي جوانبها ، كما أنشئت شبكات المرافق العامة و تطلب ذلك إزالة أجزاء من الاحياء الشعبية لاستقبال نظام الشوارع الرئيسية و الرسمية . و هكذا استمرت النظرية التخطيطية تعالج التصميمات الحضرية اكثر منها معالجة للمخططات العامة او الإقليمية . و استمر هذا المنهج في النمسا شرقا حيث ظهر المعماري كاميلو عام 1889م ليكتب ملاحظاته و انفعالاته بالجوانب الجمالية للمدينة متأثرا في ذلك بأستاذه الألماني ( شتوبن ) الذي وضع كتابه الأول عن تخطيط المدن عام 1880 م يدعو فيه الي ضرورة الحفاظ علي المدن القديمة و ما فيها من قيم جمالية للعمارة القوطية و التصميم الحضري لمدينة العصور الوسطي . و عني كامللو بتصميم الفراغات اكثر منها بالواجهات التي سماها " العمارة الورقية " و هنا أيضا لم يظهر للعلاقات الإنسانية بين فئات المجتمع أي اثر في فكر المخططين و استمر الاهتمام بالشكل ممثلا في مجموعات المباني او في الفراغات التي تتكون بينها .

و في مكان اخر من الغرب ظهر سوريا في اسبانيا و كان مهندسا مدنيا و من رجال اعمال و اخذ يعالج المدينة من جانبها الهندسي ووضع تصوره لتخطيط المدينة في الاتجاه الطولي باعتبار ان الخطوط المستقيمة هي الأنسب لمد شبكات الطرق و المرافق العامة . و قد طبق ذلك في الضواحي الجديدة لمدينة مدريد ، و هكذا اثرت افرازات الثورة الصناعية علي النسيج العمراني للمدينة . و في نفس الاتجاه ظهر أنطونيو في إيطاليا مؤكدا عامل الحركة في تشكيل المدينة سواء الحركة الافقية للسيارات او الحركة الرأسية للمصاعد و هي أيضا من منجزات الثورة الصناعية فكانت الأولوية لحركة الالة عن حركة الانسان ، و غاب العامل الاجتماعي و الثقافي عن المدن الجديدة و كان هدف تخطيط المدينة الصناعية في هذه الفترة هو العناية بالصحة العامة و استقرار العمالة و هو أيضا من متطلبات الثورة الصناعية بأبعادها المادية ، و لم تجد المدينة الغربية من خلال هذا الاتجاه التوازن الذي يوفر الاحتياجات المادية و المعنوية للإنسان . و مع نهاية القرن التاسع عشر و بالتحديد عام 1898م ظهر احد الكتاب في إنجلترا و هو ابنزر ليضع تصوره للمدينة .

**النظرية التخطيطية في الغرب**

تطورت النظرية التخطيطية في الغرب من خلال تطور الواقع الاقتصادي و الاجتماعي و البيئي الذي مرت به المدينة الغربية ، فهي تستمد جذورها الفكرية و المنهجية من التحولات الحضارية التي مرت بها ، و قد اشترك في بلورة هذه النظرية مجموعات متعاقبة من أصحاب الفكر و الثقافة و الطب و الهندسة و الاجتماع ، الامر الذي اعطي النظرية ابعادها التخصصية المتكاملة . و قد بدات النظرية التخطيطية في الغرب تتبلور في اعقاب الثورة الصناعية و ما سببته من فقدان التوازن البيئي و الأيكولوجي بين الريف و الحضر و ما نتج عن هذا التحول المفاجيء من امراض اجتماعية و بيئية كادت تقضي علي الجانب الإنساني للمدينة . و استمرت النظرية التخطيطية بعد ذلك يتداولها المفكرون و الاجتماعيون و المهندسون ثم المعماريون الذين وجدوا في تخصصهم نوعا من التكامل بين العلوم الإنسانية و الهندسية . الأمر الذي ساعد علي تأهيلهم لقيادة الحركة الفكرية في مجال التخطيط العمراني ، فبرز منهم الرواد في نظريات التخطيط العمراني علي المستوي المحلي للمدينة الي ان ظهرت أهمية التعامل مع المدينة في اطارها الإقليمي . و هنا تدخل الاقتصاديون و علماء الجغرافيا في النظرية التخطيطية بحكم تخصصهم في هذا المستوي من التخطيط . و بعد ذلك ظهرت النظريات التخطيطية التي تتعامل مع المدينة الغربية بمستوياتها المحلية في التصميم الحضري و مستوياتها الكلية في التخطيط العام و مستوياتها الإقليمية في التخطيط الإقليمي الذي برزت فيه الجوانب الاقتصادية و الاجتماعية و الجغرافية. وهكذا تشبعت المدارس كما تشبعت الاختصاصات و اختلفت الانتماءات الفكرية كما اختلفت الأساليب المنهجية و ظهر كل ذلك تباعا في سيل من المؤلفات و البحوث و الدراسات التي اثرت المكتبة الغربية و فاضت علي ارجاء اخري من العالم حتي تغلغلت في المناهج التعليمية و الاكاديمية فيها، واكثر من ذلك انتقلت الي الجانب التطبيقي الذي أثر علي التنمية العمرانية للمدن و القري في هذه الارجاء مع اختلاف ظروفها الاقتصادية و الاجتماعية و البيئية. الأمر الذي تسبب في فقدان هذه المدن لهويتها الثقافية و العمرانية و منها المدن العربية . من هنا كان لابد من البحث عن النظرية المحلية للتخطيط العمراني للمدينة العربية و هو ما يهدف اليه هذا الكتاب .

و اذا كانت النظرية التخطيطية في الغرب قد نشأت لحل مشاكل المدينة الغربية فان تأصيل هذه النظرية تطلب البحث في تاريخ هذه المدينة و تطورها علي مر العصور فجاء علم تار. الامر الذي ادي في بعض اليخ تخطيط المدن مستمدا من الخط الحضاري للمدينة الغربية من العصر الاغريقي الي العصر الروماني ثم العصور الوسطي ثم عصر النهضة حتي الثورة الصناعية و ما بعدها و ذلك بهدف التعرف علي الجذور الحضارية لمجتمعات هذه المدن و كيف انعكس ذلك علي تطور هياكلها علي مر العصور و مع ذلك انتقل هذا العلم أيضا كغيره من النظريات التخطيطية الي ارجاء اخري من العالم مؤثرا علي مناهجها التخطيطية و مشروعاتها العمرانية التي فقدت كل مقوماتها الحضارية و البيئية. الامر الذي ادي في بعض المؤسسات العلمية العربية الي البحث عن النظرية التخطيطية التي تتناسب مع الواقع الحضاري للمدينة العربية من خلال البحوث و الدراسات التي لم تتبلور بعد في منهج واحد في منهج واحد او فكر موحد يصلح لان يكون اساسا لعلم التخطيط العمراني في المدينة العربية .

و يبدا تاريخ النظرية التخطيطية في الغرب من اليونان حيث تقول مقدمة أحد المراجع ان الشمس في اليونان ساطعة و مبهرة. و الجو صافي و طبيعة الأرض جبلية مرتفعة و في هذه البيئة الطبيعية اقام المعماري اليوناني المعابد الكبيرة التي توضح تفاصيلها المعمارية المنهج العميق لرؤيا الانسان للمباني في هذا الضوء الساطع و مدي توافقها مع البيئة الطبيعية ، فلم يحاول اليونانيين ان يطغوا بمبانيهم علي الطبيعة و لكنهم حاولوا ان يضعوا المباني في الطبيعة كأحد عناصرها . و هنا يتوفر المقياس الإنساني للطبيعة ، و هنا يظهر ما يعبر عنه المعماريون بالمقياس ، و هكذا يظهر ما يعبر عنه المعماريون بالمقياس و هكذا تكونت المدينة اليونانية ككتلة واحدة في هذه البيئة الجبلية . و كانت المباني تري مع خلفياتها الجبلية . و لم يكن تجميع المباني يتم علي أساس التصميم الذي يضعه المعماري في وقت واحد من الزمان بل كان يتم علي أساس التصميم الذي يضعه المعماري في وقت واحد من الزمان بل كان يتم علي أساس من الفكر التخطيطي الذي يساعد علي تكامل بناء المباني العامة علي مدي أطول من الزمن كما كان تصميم الحيز الفراغي للاجورا بوسط المدينة مبني علي أساس توزيع الحجوم والفراغات حتي يمكن الانتقال من فراغ الي اخر من خلال البوابات الرسمية . و كانت المباني توضع بطريقة تساعد علي رؤيتها من زوايا مختلفة ، لذلك كان الفراغ هو احد عناصر التصميم المعماري حيث لعبت المستويات دورا هاما في هذا التصميم الذي تظهر فيه مجموعات من المباني المترابطة المنظور و المنفصلة الكيان .

فكان لكل مبني في الاجورا وسط المدينة ذاته الخاصه ، و لم يكن ملتحما مع الباني المجاورة او متداخلا معها .

كما كان التشكيل الفراغي للاجورا مرتبطا بالطبيعة الجميلة للمواقع . و قد ظهرت المدينة اليونانية بصورتها التلقائية المرتبطة بالطبيعة الجميلة للمواقع . و قد ظهرت المدينة الجديدة علي عكس هذه التلقائية بل ظهرت في صور جامدة منتظمة التقسيمات متجانسة مع الموقع حتي وان كانت مبنية علي طبيعة جبلية غير مستوية ، كما في مدينة ميلوتيس القديمة . و هنا تظهر قوة القيادة المركزية التي تحكم المدينة سياسيا و عمرانيا . كما تظهر قوة القانون و النظام الذي تميز به اليونانيين ، كما تظهر المساواة في مساحات قطع الأرض نظرا للطبيعة العسكرية للمجتمعات الوافدة من اليونان او الهاربة منها . و مع ذلك فقد وجدت الاجورا و المعبد و السوق في مركز الدينة حيث يجتمع اليونانيين لتسيير امورهم حيث ظهر أول تنظيم ديموقراطي في التاريخ . و جاء الرومان بعد الاغريق و قد تعلموا منهم دروس البناء و التخطيط و افاضوا عل

التطور الإسلامى للنظرية المعمارية المدخل لإعادة التوازن العمرانى للمدينة العربية د. عبد الباقى إبراهيم رئيس مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية ـ القاهرة لاتزال إشكاليات التحديث والتأصيل في التجارب المعمارية المعاصرة في البلدان العربية وتجليات الإغتراب في العمران العربى المعاصر محلا للجدل والنقاش مع كثير من المفكرين والمعماريين . وكثيرا ما طرحت هذه الإشكاليات في العديد من المؤتمرات والندوات التى حاولت أن تسعى إلى القاء الضوء على المؤثرات الثقافية الواردة من الغرب على موروثنا الحضارى والعمرانى . والعمارة كغيرها من الفنون تعرضت إلى موجات متلاحقة من الغزو الثقافى الغربى منذ العصر العثمانى وخلال عصور الإحتلال وما واكبه من نفوذ أجنبى بدأت بوادره تظهر في عصر إسماعيل باشا في مصر حيث حاول ان يجعل من القاهرة قطعة من أوروبا بدعوته للمعماريين الفرنسيين والإيطاليين لبناء وتعمير إمتداد القاهرة غرب المدينة التاريخية فشقت الشوارع العريضة على النمط الباريسى فأقيمت العديد من العمائر التى تحمل طراز عصر النهضة والباروك ومعها تغيرت الأزياء الرسمية وشاع الزى الغربى في الأوساط الراقية كما أقيمت الأوبرا لتقدم الأنغام السيمفونية والأوبرالية . كما نفذت الثقافة الأوربية إلى الآداب والفنون بكافة انواعها .. وهكذا تغيرت ملامح الإنسان كما تغيرت ملامح العمران .. وانقطع تيار التواصل الحضارى مع الماضى الزاخر بإبداعاته الفكرية والأدبية والفنية والمعمارية . ودخلت مصر في حقبة جديدة من الحضارة المعاصرة عززها الإرتباط المعرفى بارسال البعثات من مختلف التخصصات إلى أوروبا وأفرزت بالتالى العديد من قادة الفكر والأدب والعمارة الذين تأثروا بالحضارة الأوربية ونقلوا ملامحها إلى مصر الأمر الذى أدى بقليل من المفكريين لأدباء والمعماريين إلى الدعوة للبحث عن الذات والعودة إلى التراث في جميع اجملالات ومنها العمارة فبدىء بالنقل الحرفى من العمارة الفرعونية في بعض المبانى العامة والنقل الحرفى من العمارة الإسلامية في غيرها مع التبسيط والتنميط . من هنا بدأ الحوار الساخن بين المؤيدين للتفاعل مع العمارة العالمية والمؤيدين للتعامل مع العمارة المحلية واختلطت المفاهيم كما اختلطت المدارس الفكرية الأمر الذى انعكس بالتالى على المناهج المعمارية ومن ثم على المنتج المعمارى الذى حول المدينة إلى كرنفال من الأشكال والألوان والطرز المعمارية . وفقدت المدينة شخصيتها العمرانية . وانتقلت العدوى بالتالى إلى المدن في الدول العربية ، وظهرت هذه العدوى في عمارة الخمسينات والستينات في الكويت والمملكة العربية السعودية وسوريا والعراق وغيرهما من الدول العربية . إلى أن بدأت أموال النفط تجذب المعماريين من الغرب إلى المنطقة العربية مرة اخرى فأقيمت العمائر التى تعكس في معظمها العمارة الغربية الحديثة وأصبحت المنطقة العربية مثل السيرك يحاول لمعماريون من الغرب ان يعرضوا فيه لعباهتم المختلفة فاختل التو ازن العمرانى للمدينة العربية مرة اخرى وساعد على ذلك ناعة الكثير من اصحاب المال والعديد من المعماريين العرب هبذا التيار الجارف بحجة أن العالم قد اصبح قرية صغيرة لا مكان فيها للأصالة في عصر التكنولوجيا المتقدمة الواردة من الغرب . وأمام هذا التيار الجارف قام قلة من المعماريين العرب في بداية الستينات إلى الدعوة لتأصيل القيم الحضارية في بناء المدن العربية المعاصرة وظهر منهم حسن فتحى وعبد الباقى إبراهيم في مصر ومحمد مكية ورفعت الجادرجى في العراق وسباشير في الكويت وأخذوا على عاتقهم حملة التنوير الثقافى المعمارى سواء بالكتابة أوالنشر أو بالإنتاج المعمارى الذى يربط الأصالة بالمعاصرة .. وامتدت هذه الحملة تنتشر في البلاد العربية وتصل إلى قناعة متخذى القرار فيها من أصحاب رؤوس الأموال والمعماريين وبدأت صحوة جديدة تحاول ان تعيد إلى المدينة العربية وجهها الحضارى الذى فقدته على مدى قرن من الزمان . ومع هذه الصحوة الجديدة التى ظهرت آثارها في الثمانينات والتسعينات تسللت دعوات غربية تطرح من جديد النظريات الغربية المعاصرة حيث أن الفكر المعمارى في الغرب هو دائما في حالة تفاعل مستمر مع الإنجازات التكنولوجية المتلاحقة التى تصدر بعد ذلك إلى العالم العربى لتؤثر مرة اخرى على المنتج المعمارى الأمر الذى دعى بعض المعماريين وكان على رأسهم حسن فتحى للدعوة إلى ضرورة البحث عن تكنولوجيا للبناء متوافقة مع البيئة المحلية والإمكانيات البشرية . وظلت هذه الدعوة حبيس الأدراج ولم تظهر آثارها بعد على العمارة العربية المعاصرة . ومع كل هذه التقلبات الفكرية كانت العمارة الإسلامية هى المنهل الرئيسى لتأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة العربية وبدأ التعامل مع التراث المعمارى الإسلامى بغية الحصول على صيغة معمارية ملائمة تتواكب مع المنجزات الحضارية والتكنولوجية المعاصرة . وانقسم المنهج في هذه الإتجاه إلى ثلاث إتجاهات الأول وجد أن أنماط العمارة الإسلامية التى بتت قيمها ونسبها الجمالية وابداعاهتا المعمارية يمكن إعادة صياغتها نصا وروحا في العمارة المعاصرة . وقد ظهر هذا الإتجاه جليا في مجموعة كبيرة من المساجد التى انشأت أخيرا في مدن المملكة العربية وتقبلها الرأى العام بالترحاب مع مافيها من تناقضات انشائية لاتتمشى مع العصر ـ أما التوجه الثانى فظهر في أعمال العديد من المعماريين الذين دأبو لى تحليل المفردات المعمارية التراثية هبدف الإقتباس منها في صياغة العمران المعاصر مع استثمار المنجزات التكنولوجية الحديثة في البناء . أما التوجه الثالث فيرى انه لايجب اعتبار العمارة الإسلامية هى المتمثلة فقط فيما انتج من معمار في فترة تاريخية محددة وهى العصور الإسلامية وفى حيز مكانى واحد هو المنطقة الممتدة من شرق العالم الإسلامى إلى غربه . الأمر الذى يخرج لمفهوم الإسلامى عن مضمونه الذى يعتبر في الإسلام حضارة لايحدها زمان أو مكان . وأن هبا مضامين معمارية ثابتة لاتتغير بتغير المكان و الزمان وان كان فيها الشكل هو العامل المتغير بتغير المكان والزمان . ويحاول هذا التوجه إعادة المنهج إلى البحث عن العمارة في الإسلام وليس البحث عن العمارة الإسلامية بمفهومها التقليدى المتعارف عليه ، من هذا المنطلق بدأ البحث في الأصول والآليات التنظيمية التى كانت سائدة في العصور الإسلامية والتى أثرت على البناء المعمارى في هذه العصور كما بدأ البحث في مراجعة آات القرآن الكريم والسنة المحمدية وكتب السلف الصالح بدف استخلاص القيم التى تبنى الإنسان وأخذها بالقياس في بناء العمران مع الأخذ بأساليب البناء الحديثة والمتطلبات المعاصرة. من هنا يجىء المنظور الإسلامى للنظرية المعمارية لمواجهة النظريات المعمارية التى تتدفق تباعا من الغرب معتمدة على تراثه العلمى وانجازه التقنى الذى يقف أمامه الفكر العربى والإسلامى جامدا ومنبهرا دون ان يقدم البديل . والبديل هنا لاتقع مسئوليته على المعماريين فقط بقدر ماتقع على المفكرين والأدباء والعلماء والمثقفين والفنانين الذين يعبرون عن وجدان ملتمع الإسلامى العربى . ويهدف هذا البديل إلى تحقيق الأهداف التالية : 1.البحث عن الذات كبديل للتبعية الثقافية والفكرية في العمارة والعمران . 2.إعادة اكتشاف التراث الثقافى والعلمى الإسلامى وتوظيفه في النظرية المعمارية المعاصرة . 3.تأكيد المرجعية الفكرية الإسلامية واحيائها في العمران المعاصر . 4.مواجهة الغزو الثقافى الغربى بإعادة الأعتبار للغة العربية . 5.وضع النظرية الإسلامية في العمارة وتقديمها للعالم نظرية عالمية . 6.اطلاق الحرية في التعبير والإبداع في اطار القيم الإسلامية ومن خلال الموروثات المعمارية . 7.التأكيد على ان العمارة في الإسلام هى منتج اجتماعى أكثر منه انجاز فردى . ولتحقيق هذه الأهداف لتقديم البديل الفكرى للعمارة الإسلامية العربية لابد من تحديد الحقائق الآتية : 1 .التقدم التكنولوجى الذى أفرزه الغرب في فترة الضعف التى انتابت العالم الإسلامى خلال مراحل الإستعمار و ضعف القدرة على مسايرته حتى أصبحت المراجع الغربية هى الموجه للفكر المعمارى المحلى . 2.الموروث المعمارى في فترات العصور الإسلامية كان بعيدا عن الارتباط العضوى بين الإنسان والعمران الأمر الذى ظهر في حركة النمو العضوى للمدن وفى التجانس الشكلى للعمارة . 3.اختلاط النظرية الغربية بالمنظور الإسلامى للنظرية المعمارية أثار الكثير من التناقضات الفكرية بدخول الإسلام كدين عنصرا أساسيا في النظرية . 4.لغرب يقدم النظريات المعمارية السابقة ويغزو هبا الفكر المعمارى الإسلامى في الوقت الذى لم يقدم فيه المعمارى المسلم النظرية البديلة فأصبح تابعا ومتلقيا قبل أن يكون مبتكرا أو مفكرا . 5.النظرية الغربية لاتتضمن الجانب العقائدى أو الدينى في الوقت الذى يدخل فيه الإسلام عنصرا هاما في بلورة الفكر المعمارى الإسلامى . 6.الانسان هو العنصر الغائب في النظرية المعمارية الغربية التى تعتمد على الإبداع الفردى دون مشاركة الجماعة أو ملتمع بكل مستوياته في الإنجاز العلمى للعمارة . 7.الجدل الفكرى لايزال قائما بالنسبة لتعريف العمارة بالإسلامية وهل يصح أن يطلق عليها عمارة المسلمين أو ا�اء هذا الجدل بتعريف العمارة في الإسلام إذا كان هو السند الحضارى للمجتمع . من هذه الحقائق الثابتة تنطلق النظرية المعمارية من الثوابت التالية : 1ـ الإسلام لايحده زمان أومكان ويهدف إلى ماينفع الإنسان في حياته الدنيوية والأخروية ويدعو إلى التقدم العلمى وأعمال الفكر والتمعن في أسرار الكون بما يحدد المضامين الثابتة في العمران الإسلامى ، أما الإبداع في الشكل لتشكيل يتغير بتغير الزمان ويرتبط بالجذور الثقافية للمكان وتبقى المفاهيم الإسلامية هى الدافعة لحركة اجملتمع . 2ـ الإسلام حضارة كل العصور يبنى الإنسان كما يبنى العمران وفيه كل مقومات النظرية العمرانية التى لم يستكمل إكتشافها بعد وهو المرجعية الثقافية البديلة للمرجعية الغربية المنهج والفكر والعطاء التى لاتزال تواجه الفكر العربى . 3ـ الإبداعات المعمارية في حركة مستمرة وقبولها يرتبط بفاعليتها من الجوانب الثقافية والبيئية والوظيفية والإقتصادية والإجتماعية التى تمثل مقومات النظرية الإسلامية في العمارة . من هنا يظهر القوام الإجتماعى أو الجماعى للنظرية التى يتمثل في كون العمارة من الداخل ملكا للفرد ومن الخارج ملكا للمجتمع الذى يعيش بين جوانبها . الأمر الذى يثير الجدل بين الفردية في الإبداع والجماعية في التلقى أو اشكالية العمارة بين الفردية والجماعية بما يمثله منهج الوسطية الأمر الذى ينعكس بدوره على عملية بناء الفكر المعمارى والعملية التعليمية . 4ـ استمرار المد الحضارى بين الماضى والحاضر والمستقبل يصعب إيقافه كليا أو جزئيا ويعتمد في ذلك على قوة الموروث الثقافى للمجتمع المرتبط دائما بالموروث العمرانى فالحفاظ على الأول وتفعيله يرتبط بالحفاظ على الثانى وتطويره في بناء الشخصية المحلية للعمران وان تسابقها بعض المؤثرات الخارجية التى لاتتعارض مع البيئة الإجتماعية أو القيم الإسلامية . من خلال الحقائق والأهداف والمنطلقات السابقة يمكن عرض بعض جوانب النظرية العمرانية في الإسلام من واقع التوجيهات الإسلامية في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة إبتداء من وحدة الجوار في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة أو من التكافل الإسلامى في مشروعات الإسكان أو من تحرير المضامين التصميمية في البناء سواء في المسجد أو في السكن او غيرهما من المبانى ـ لقد نبعت نظرية وحدة الجوار في المدينة الإسلامية من الحديث النبوى الشريف " إلا من أربعين دار ا جار " وأشار في ذلك إلى الجهات الأربعة ، من هنا امكن استخلاص شكل وحدة الجوار بأبعادها الثابتة وبكثافتها المختلفة لتصبح بمثابة الخلية في بناء جسم المدينة الإسلامية في مراحل نموها المستمرة بصورة متكاملة . وكان ذلك مدخلا لاستنباط النظرية الإسلامية في التنمية العمرانية شاملة مرحلية الإستيطان البشرى المتكامل مع التكافل في مشروعات الإسكان ومراجعة اسلوب تقسيم الأراضى بما يسمح لهذا التكافل واضفاء الطابع العمرانى المتجانس . كما نبعت نظرية التكافل في مشروعات الإسكان وعدم الفصل بين الطبقات من خلال الآية الكريمة { أهم يقسمون رحمة ربك . نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون } . وفى ذلك دعوة لعدم التفرقة بين الطبقات في التجمعات السكنية وتأكيد المزج الإجتماعى في مناطق الإسكان وتطبيق مبدأ التكافل بين المسلمين حتى يصبح إيواء من لا مأوى لهم جزءا لا يتجزأ في عملية التنمية العمرانية المتكاملة يتحمله الأغنياء عن ا ز لفقراء كمصرف للكاة . وتنتقل النظرية بعد ذلك لتتضمن القواعد الفقهية التى تحكم تصميم المسجد في كل زمان ومكان مع إختلاف القواعد التقنية والجذور الثقافية التى تحكم الشكل في المكان فالقواعد التصميمية الثابتة تحث على عدم قطع صفوف المصلين بكثرة الأعمدة وتوفير رؤ ية الخطيب واعطاء الصفوف الأولى الأفضلية وكما جاء في الحديث النبوى الشريف " لو يعلمون مافى الصف المقدم لاستهموا " . كما ان تصميم المسجد ليس للتفاخر والتباهى ـ في الحديث النبوى الشريف " لاتقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد " وقال أنس يتباهون هبا ثم لايعمرو�ا إلا قليلا " والمسجد ليس مكان للزخرف كما في الحديث الشريف " إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار لكم " يبقى منهج الوسطية هو المتحكم في النظرية . ويصبح مبنى المسجد متكاملا مع النسيج العمرانى للمدينة وليس على أطرافه أو خارجه كما هو متكامل مع النسيج الإجتماعى الذى يلتف حول المسجد كمركز للنشاط الإجتماعى والثقافى والدينى في قلب وحدة الجوار . وكذا تبدأ المحاولات للبحث عن جذور النظرية التخطيطية والمعمارية من نصوص القرآن الكريم والسنة المحمدية ويستمر البحث بعد ذلك في أقوال السلف الصالح وفى النظريات العلمية لعلماء المسلمين كمرجعية ثقافية وفكرية تحرك النظرية الإسلامية وتقدمها للعالم كدليل على قدرة المعمارى المسلم على استنباط النظريات كما يفعل أقرانه في دول الغرب بنفس المنهج والأسلوب مع اختلاف المحتوى والمضمون . الأمر الذى يمثل الإتجاه العلمى لمواجهة اشكاليات التحديث والتأصيل وتجليات الاغتراب في العمران العربى . حتى تعود للأمة الإسلامية والعربية مقوماهتا الحضارية التى فقدت معظم ملامحها الثقافية والعمرانية خلال فترات الغزوات العسكرية وما تبعها من غزوات ثقافية واقتصادية . وفى ذلك دعوة إلى تأصيل القيم الحضار ية في بناء العمران الجديد . واالله من وراء القصد .